الفصل الثالث

في طور البلوغ

في ربيع عام ١٩٨٤م تخرجت أنا ومنيرة وباسمة في المدرسة الثانوية، وهو حدث يحدد الوقت الذي يفترض منا فيه أن نصبح راشدات، ونتحمل مسؤولياتنا بوصفنا فتيات ناضجات، أما أختي سميرة فقد تخرجت قبلي بعامين، وتزوجت، وأنجبت طفلًا ذكرًا أسمته (أحمد)، تيمّنا بوالد زوجها، وقطعت باسمة علاقتها بعادل، فقد أخبرته منذ البداية بأن أباها اتخذ ترتيبات لتزويجها من أحد أبناء عمها، لكن بدا ذلك من أحداث المستقبل البعيد، لذا لم يعيرا الأمر اهتمامًا كبيرًا، والآن وبعد أن تخرجت باسمة حان الوقت لأن يفي أبوها بوعده. كان عادل وباسمة حزينين جدًّا، لكن لم تجرؤ باسمة على إخبار أبيها بعدم رغبتها في الزواج من ابن عمها، ولأنها أصبحت الآن مخطوبة رسميًّا، لم تستطع مغادرة المنزل للقاء عادل، وأخبرته بأن علاقتهما قد انتهت.

«أنا آسفة! لكن علي أن أجهز نفسي لعرسي».

عندما أقنعت باسمةُ عادلَ أن علاقتهما انتهت فعلًا، غادر عادل ولم يَرَها مجددًا، وبينما كنت أمشي مع باسمة للبيت بدأتْ فجأة بالبكاء.

«فدوى، أنا لا أحب ابن عمي نهائيًّا! كيف سأقدر على العيش معه؟».

حاولت أن أخفف عنها قدر المستطاع، لكن لم يكن لدي أدنى فكرة عما سأقول لها، إذ كيف يمكن لأحد أن يعيش حياته كلها مع شخص لا يحبه؟

استمرت علاقتي بأحمد، لكنه انضم للجيش الأردني لينهي عامي الخدمة العسكرية الإلزامية، وكان عليه التمركز في منطقة الأزرق في شمال غربي عمّان؛ لذلك نادرًا ما كنا نرى بعضنا.

في ذلك الوقت تقريبًا تقاعد أبي عن عمله، فهو مسؤول رَيّ لدى الحكومة الأردنية، ولكنه كان يمتلك بيتًا في تلك القرية، وبقي على نظامه يأتي إلى عمّان كل يوم خميس؛ ونتيجة لذلك لم يتوافر مع والدي المال الكافي لإرسالي إلى كلية الأعمال، كما خططت أنا، وكان علي أن

أجد عملًا؛ لأنه بحسب اعتقاد والدي لم يكن هناك أمل بأن أتزوج، فقررت أن أنضم لمركز لأحصل على شهادة للعمل سكرتيرة، انضمت منيرة للمركز نفسه، وكنت أذهب للمركز كل يوم، لكني كنت دائمًا أفكر في أحمد في أثناء غيابه.

قررت أن أزور أحمد في قاعدة التدريب، لكن كان علي أولًا أن أجد طريقة لأصل إلى هناك؛ لذلك مررت بجانب السوبرماركت الذي اعتاد أن يقف عنده أحمد مع صديقه بلال. وجدت بلال هناك، فحركت شفتيّ مشيرة إليه بأنني أرغب في التحدث معه، فتبعني إلى مكان منعزل أخبرته فيه بأنني أرغب في رؤية أحمد. بدا بلال مذهولًا.

«لكن أحمد في المعسكر حاليًّا، والمعسكر بعيد عن العاصمة. وفوق ذلك، تمنع الفتيات من زيارة المعسكر».

لم أدع ذلك يردعني، فرجوت بلال، وعيناني تملؤهما الدموع بأن يأخذني إلى هناك، وأخبرته، كم أنا مشتاقة إلى أحمد.

«حسنًا يا فدوى. كوني جاهزة غدًا عند الساعة ١٠:٣٠ صباحًا».

ذهبت أنا ومنيرة إلى المركز عند الساعة ٨:٠٠ صباحًا كالمعتاد. كانت معلمتنا، الآنسة وفاء، تعرف مسبقًا عني وعن أحمد من أخيها الذي كان صديقًا لأحمد؛ لذلك أخبرتها بأننا ذاهبتان لرؤية أحمد. ففي حال أتى أحد من عائلتي للمركز ليسأل عنا سوف تعرف معلمتي ماذا ستقول له.

لم يكن لدى أحد منا سيارة، لذلك اضطررنا إلى أن نجمع مالنا، ونستأجر سيارة أجرة تقطع بنا مسافة ساعة ونصف الساعة إلى هناك. أقلتنا السيارة الأجرة إلى مكان يقع خارج معسكر التدريب، حيث لا يوجد بيوت ولا محالّ تجارية. وطلب بلال من السائق أن ينتظرنا؛ لأنه من المستحيل العثور على سيارة أجرة أخرى في تلك المنطقة. التقينا حارسين عند البوابة، وسألانا عن سبب وجودنا هنا؟، فأجبناهما بأننا أتينا لرؤية أحمد. ناقش الحارسان الأمر بينهما بضع دقائق، ثم وافقا، وسمحا لأحمد بأن يغادر المعسكر ليلتقينا مدة ٣٠ دقيقة. وعندما خرج أحمد لم يكن يعلم أننا في انتظاره، نظر إلي بينما كنت واقفة خارج البوابة، وبدأ بالبكاء.

سألته: «لماذا تبكي؟».

فأجاب بحذر: «لم أعرف أنك تحبينني، لدرجة أن تسافري كل هذه المسافة لترينى بضع دقائق فقط».

«لأنك تقيم في معسكر للتدريب لم أكن متأكدة من أنهم يسمحون لكم بسماع الموسيقا، أو تناول طعام جيد؛ لذلك لم أحضر الكثير معي، لكني كتبت لك كلمات أغنية (**بعيد عنك حياتي عذاب**) لأم كلثوم.

رجعت إلى البيت أطير فرحًا، وأمضيت الأسابيع القليلة المقبلة أتذكر لقاءنا السري خارج معسكر التدريب، ولم أنتبه كثيرًا لواجباتي المدرسية. فقد كنت أشعر بالسأم الشديد من تعلم السكيرتارية، وكنت في حاجة لشيء يلهيني عن التفكير في أحمد طوال الوقت. وفي أحد الأيام جاءت مجموعة من ضباط الشرطة إلى المركز ليتحدثوا معنا، ما جعلنا جميعًا ننظر لبعضنا، ونهمس بقلق نتساءل عما يريدونه منا؟ ثم وقف رجل أمامنا في الصف، وعرض علينا أن ننضم للعمل في قوات الشرطة الأردنية، فعندئذ سنكون أول مجموعة من النساء يصبحن شرطيات.

أثار ذلك اهتمامي، ما جعلني أقنع منيرة وصديقة أخرى لي تعرفت إليها في المركز بالذهاب معي للتجول في مخفر الشرطة. وفي أول زيارة لنا للمخفر أعطونا محاضرة قصيرة عن طريقة دراسة مواقع الجريمة، ثم أخذونا في جولة، وأرونا دلائل من جرائم حقيقية موضوعة في أكياس بلاستيك ومعلقة على الحائط. لقد أرادوا معرفة ردّة فعلنا، عندما نرى السكاكين الملطخة بالدماء وأشياء أخرى منفرة. وأخبرونا بكيفية حل جرائم حديثة، وجعلونا نلعب أدوارًا؛ ليروا كيف نساعد ضحايا الجرائم أو شخصًا أصيب في حادثة سيارة. رأت منيرة الدم، وكان سيغمى عليها؛ لذلك ذهبت لتقف في الرواق، وتشرب كأسًا من الماء.

بعد هذه الزيارة الأولية صممت على الانضمام للشرطة. كنت أحضر للمركز في الصباح، ثم يأتي ضابطا شرطة ليقلّاني أنا وبعض زميلاتي إلى المخفر لنتدرب، وهناك بدأت أتعلم فن الدفاع عن النفس، وأصبحت ماهرة في تنفيذ تمرين الضغط وتمارين أخرى دون أن أدع حجابي يسقط. إلا أنني كنت قلقة قليلًا؛ لأن أحد إخواني كان يأتي للمركز ليطمئن علي، بينما أكون في مخفر الشرطة، لكن ذلك لم يردعني عن مواصلة التدريب.

وبعد بضعة أسابيع من التدريب كنت أنا وصديقة لي اسمها (رندة) نمشي في الشارع بعد أن غادرنا المخفر، لكن ما لبثنا أن رأينا رجلين يتشاجران على موقف سيارة، نظرنا لبعضنا متحمستين لأول فرصة لاختبار مهاراتنا الجديدة، بوصفنا شرطيتين، لكنا كنا قلقتين

Obeikandi.com

قليلًا؛ لأنهما كانا رجلين، ومن المحتمل ألا يستجيبا لامرأتين تأمرانهما بأن يوقفا المشاجرة. كنا نرتدي ثيابًا مدنية، لكن كانت معنا هويات الشرطة التي أصدرت لنا حديثًا. دنونا من الرجلين محاولتين قدر المستطاع أن نبدوا مخيفتين.

«ما الذي يجري هنا؟».

«من أنتما؟».

أخرجنا هويات الشرطة بسرعة ما جعل نبرتهما تتغير كالسحر، وما لبث كلاهما أن أصبحا هادئين وبدأا يعتذران محاولين أن يثبتا لنا أنهما لم يتخطا حدودهما، ولا حاجة لاعتقالهما.

«سوف نتغاضى عن الأمر هذه المرة».

مضينا في طريقنا نمشي على مهلنا في الشارع مسافة ثلاثة صفوف من البيوت تقريبًا، ثم انعطفنا عند ناصية الشارع، وبدأنا نضحك بشكل هستيري.

«لقد فعلناها! لقد أخفنا رجلين بالغين، واستمعا لأوامر شرطيتين!».

خلال مدة تدريبي لم أقل كلمة واحدة لعائلتي عما كنت أفعل، فقد كنت متأكدة أنهم لن يوافقوا، وأن والديّ على الأرجح سوف يمنعاني من الاستمرار، وكنت أيضًا أكذب حول حضوري مدرسة السكيرتارية النهار كله؛ لذا كان سيجب علي تفسير ذلك أيضًا. ساعدتني منيرة على الاحتفاظ بالسر، فبعد أن كاد يغمى عليها خلال أول زيارة للمخفر قررت عدم الانضمام للشرطة؛ لذلك بقيت منيرة في المركز، وكانت إذا حضر أي أحد من عائلتي للمركز في أثناء وجودي في مخفر الشرطة تختلق الأعذار مبررة غيابي عن الحصة. وقامت معلمتي، الآنسة وفاء، بحمايتنا أيضًا، فقد شجعتنا على الاستمرار في التدريب، وكانت أحيانًا تتستر على غيابي عن الصف.

لم يشك أحد في الأمر إلى أن كادت أخت زوج أختي سميرة (إنعام) تعترف بذلك دون قصد. ففي إحدى الأمسيات كنت أنا وسميرة وإنعام (التي تعرفت إليها في المدرسة المتوسطة) جالسات في غرفة المعيشة، عندما سمعنا أحدهم يقرع الباب بشدة، فطلبت مني أمي أن أفتح الباب.

وفجأة قالت إنعام دون تفكير: «ربما الشرطة على الباب، ربما حصل حادث، ويحتاجون إلى فدوى».

فوجئت أمي، وسألت حائرة: «لِمَ سيحتاجون إلى فدوى؟».

قررت سميرة وإنعام فجأة أن تعودا لمنزليهما قلقتين من ردّة فعل أمي، عندما علمت أنني انضممت إلى قوات الشرطة. فسارعت أنا لاختلاق عذر معقول، لكن لم يخطر في بالي أي عذر إلا أن أقول لها: إن الشرطة أتوا إلى المركز ليعلمونا الإسعافات الأولية.

لم تصدقني أمي، وقررت أن ترافقني إلى المركز في اليوم المقبل، وهناك سألت الآنسة وفاء عن تحصيلي الدراسي إذا كنت أحضر الحصص طوال النهار، ولحسن حظي طمأنت الآنسة وفاء أمي بأنني مجتهدة، ولم أتغيب يومًا عن الحصص، اقتنعت أمي بهذا الجواب، ولم تراجعني في الأمر ثانية. وهكذا أنهيت تدريبي، وأصبحت رسميًّا شرطية، لقد كنت فخورة بهذا الإنجاز، لكني كنت متأكدة أنه لن يدوم. فعلى الرغم من أني نجوت من أن أهلي يكتشفون سري هذه المرة، لكني عرفت أنه لا يمكنني الاستمرار في حيلتي هذه للأبد. فقد كان والداي يتوقعان مني أن أجد وظيفة، لكن ما كانا ليسمحا لي بالعمل في قوات الشرطة؛ لذلك وبكل أسف استقلت من الشرطة قبل أن تتاح لي فرصة العمل فيها. حصلت على شهادتي، وبدأت أبحث عن عمل سكرتيرة.

أنهى أحمد تدريبه العسكري في وقت تخرجي نفسه تقريبًا، ورجع إلى عمّان لاستراحة قصيرة، وفي أحد الأيام مر أحمد بمنزلنا، وصفّر لي، رأيته من نافذة غرفة المعيشة، وابتسمت، وما لبثت أن ارتديت حجابي، وركضت إلى منزل منيرة.

«منيرة! أحمد هنا! تعالي لنذهب!».

أخبرنا أمي وأمها بأننا ذاهبتان لنتمشى، ثم اتجهنا إلى مكان لقائنا القديم. لكن هذه المرة لم أقدر على الانتظار حتى أصل إلى الصخرة، وأتحدث إلى أحمد، فناديت عليه، وأتى ليتحدث معي في منتصف الشارع، لم أنتبه في البداية إلى أن إحدى جارات منيرة كانت جالسة في غرفة معيشتها تراقبنا من خلال نافذتها. رأتها منيرة، وجذبت كمّي مُومِئة برأسها في اتجاه جارتها، فأنزلت الجارة الستارة بسرعة.

«أعتقد أنها رأتك يا فدوى، أنا لا أحب هذه المرأة، وأعتقد أنها ستخبر الجميع».

لقد كنت سعيدة جدًّا برؤية أحمد، لدرجة أني نسيت كليًّا أني كنت واقفة وسط الشارع، حيث يمكن للناس رؤيتنا؛ لذلك توقفنا عن الحديث إلى أن وصلنا الصخرة.

«لقد اشتقت إليك كثيرًا يا أحمد!».

«وأنا أيضًا اشتقت إليك كثيرًا! عندما أتيت إلى المعسكر لم أكن الوحيد الذي فوجئ. فقد سألني الحراس إن كنتِ خطيبتي، لكني ابتسمت، ولم أقل شيئًا، وعندما دخلت إلى ثكنتي كنت أغني، ما جعل جميع الجنود يسألون إن كنت قد تسلّمت رسالة من حبيبتي، فقلت لهم: إنك أتيت شخصيًّا إلى هنا، لقد أصابهم ذلك بالذهول. وفي وقت فراغي كنت أطبل على الخزانة، وأغني لك».

كلامه جعلني أتوهج فخرًا.

«فدوى، أريد أن أطلب منك أن تلاقيني في غرفتي، تلك التي على سطح منزل والدي. أرجوك ثقي بي، فأنا أحبك، ولن أؤذيك أبدًا».

«ربما، دعني أفكر في الموضوع كم من الوقت ستبقى هنا؟».

«ثلاثة أسابيع، بعد ذلك سأعود إلى المعسكر؛ لذلك أريد أن أراك قدر الإمكان قبل أن أغادر».

«حسنًا، سأقابلك المرة المقبلة في غرفتك».

بعد أسابيع عدة كنت في منزل منيرة، وفجأة بينما كنا نتحدث سمعنا أحدهم يطرق الباب. لقد كانت تلك جارة منيرة التي رأتني أتحدث مع أحمد في، كانت تقريبًا في العقد الأربعين من عمرها في ذاك الحين. لم تقل شيئًا لمنيرة، بل اقتربت مني، وأخبرتني بأنها تعرف ما بيني وبين أحمد.

فقالت: «فدوى، لقد كنت مع أحمد في إحدى الليالي، ولديه صور لي، هل يمكنك أن تحضري هذه الصور لي؟».

لم أطرح أي أسئلة، وأخبرتها بأنني سأسأله عن تلك الصور، عندما أراه ثانية. لم أصدق ما قالته، فسألت نفسي: لِمَ يفعل أحمد ذلك؟ فهو يحبني، وافقتني منيرة الرأي، لكن شيء ما جعلها مترددة قليلًا.

«ربما عليك يا فدوى، أن تخبري أحمد عما قالته هذه المرأة، فقط اسـألیه ماذا حدث، فعلى الأقل ستعرفين الحقيقة منه».

فقلـت: «لكن ماذا لو خسـرته؟ ماذا لو كان هذا صـحيحًا؟ لا يمكنني مجرد التفكير في إمكانيـة حـدوث ذلك، رجعـت للمنزل محاولة التفكيـر في طريقة لحل هذه المشـكلة دون أن أخسـر أحمد، فإذا اتضح أن ذلك صـحيح يمكنني أن أسامحه هذه المرة فقط، وسوف أنسى الموضوع إذا وعدني بألا يحدث ذلك مجددًا.

عندما غادر أحمد المعسكر في إجازة للمرة الثانية ذهبت لأقابله في منزل والديه، في غرفته الصغيرة قليلة الأثاث، وفي طريقي لغرفته شعرت بالقوة والثقة، متأكدة أنني سوف أتدبر أمري.

التزمـت الصـمت في البداية، فعلى الرغم مـن أنني أردت أن أسـأله إلا أنني لم أعرف كيف، لكن في النهاية فتحت فمي، ونطقت السـؤال المؤلم، وعندما سـألته عن الصور؟ سكت لحظة، ثم قال:

«فـدوى، أريـد أن أخبرك بكل صـدق بما حدث حتى تفهمي الموضـوع. هـل يمكنني أن أخبرك بشيء من الصعب عليك سماعه؟».

هززت رأسي موافقة، وحضّرت نفسي لما سيقوله.

«لقد أتت إلى غرفتي، ثم نزعت ملابسـها، واسـتلقت على السـرير، وأخبرتني بأنها في حاجـة إلـى المال، كنت خائفًا من أنها سـتخبر أحدًا ما لاحقًا عما فعلنـاه، وتلقي باللوم علي، لذلك التقطت صـورًا لها، وهي عارية في السـرير، واحتفظت بهذه الصور؛ لأتأكد من أنها لن تقول شيئًا، هل تصدقينني يا فدوى؟».

استمعت بصمت لقصة أحمد، لقد أحببته كثيرًا، ولم أستطع أن أتخلى عن خمس سنوات من الحب، بسبب هذا فكرت لحظة، ثم أجبته:

«نعم، أنا أصدقك يا أحمد».

بعـد ذلـك عاد أحمد إلى المعسـكر. لم أسـأله ثانية عن جارة ابنة خالتـي، فأنا مازلت أحبه، ولم أرد أن أعرف المزيد عن هذا الأمر، حاولت أن أسـترجع مشـاعر البهجة والبراءة التي كانت تملؤني، لكن ألم خيانته ازداد في قلبي.

عاد أحمد بعد مدة من المعسكر، والتقينا مرة أخرى في غرفته الصغيرة. كتب قصائد، وغنى لي أغاني، ورسم لوحة لي، لقد شعرت برضا عميق عندما كنت أمضي ساعات أتحدث إليه، لكنه ما لبث أن أصبح متململاً.

قام بتحسس طرف حجابي، لكني أزحت يده بعيدًا.

«فدوى، أنت رفيقتي منذ سنين عدة، لكني لم أَرَ شعرك أبدًا، هل تستطيعين نزع حجابك مرة واحدة؟».

ابتعدت عنه.

«أريد أن أقبلك يا فدوى».

«لا، لا. أنا لا أرغب في ذلك».

«إن لم تقبليني، وغادرت غرفتي الآن، فاعتبري علاقتنا قد انتهت».

لم يكن ذاك هو الشخص الذي عرفته كل تلك السنين، الشخص الذي كان دائمًا يحترمني، ففي كل مرة أنظر في عينيه كنت أرى الخزي فيهما بسبب ما فعله مع تلك المرأة.

«أرجوك يا أحمد، أرح نفسك إن كنت لا تزال تشعر بالخزي، فأنا سامحتك، ومازلت أريدك أن تبقى على عهدك بألا تلمسني قبل أن نتزوج. أرجوك لا تجرح مشاعري هكذا، لا تضعني في هذا الموقف الصعب، فأنت تعرف أن هذا لن يحدث، حتى لو كنت أحبك كثيرًا».

«حسنًا إذن، هذه هي النهاية بيننا».

أشحت بوجهي عنه، محاولة كل جهدي ألا أبكي أمامه، وبعد برهة سمعته يرطم صوري التي بحوزته بقوة على الطاولة، التقطتها وأنا أرتعد، وتركت صورته في مكانها.

عندما رجعت للمنزل التقيت منيرة، التي أخذتني نتمشى وراء المدرسة.

«توقفي عن البكاء يا فدوى، ليست تلك نهاية حياتك ستكونين بخير».

عانقتني، ورجعت أنا إلى المنزل غير مقتنعة.

فتحت باب الثلاجة، والتقطت علبتين من الدواء، ثم ابتلعت ملء يدي أقراصًا صغيرة بيضاء، واستلقيت على فرشتي لأنام، جاءت أمي تبحث عني، ووجدتني في غرفتي فاقدةً

الوعي، فبدأت تصرخ ما جعل أخي الأصغر (محمود) يهرع إلى الغرفة، حمل جسدي الواهي، ووضعني على كتفه، وذهب بي مسافة ثلاثة صفوف من البيوت إلى عيادة الطبيب. كان أبي موجودًا في عمّان في ذلك اليوم، وجاء هو وأمي للعيادة.

سحب الدكتور يوسف السموم من معدتي، ووضع قسطرة وريدية في يدي، وعندما أفقت رفضت أن أخبره لماذا تناولت الدواء، في النهاية استسلم، وأخبر والدي بأنني بخير من الناحية الجسدية، لكن يجب أن يأخذاني إلى طبيب نفسي، ثم أعطى والدي اسم طبيب وعنوانه، وهو الدكتور خليل؛ ليساعدني.

وهكذا أخذني والداي في اليوم المقبل لأرى الدكتور خليل، لكني رفضت التحدث إليهما حتى خلال رحلتنا بسيارة الأجرة إلى عيادة الدكتور خليل، التي استمرت ثلاثين دقيقة، طلب الدكتور خليل من والدي الانتظار في إحدى غرف العيادة؛ ليتحدث معي، وعندما أصبحنا وحدنا أخبرني بأنه لن يقول لوالدي أي شيء أخبره به، لكني لم أكن متأكدة أنني أثق به؛ لذا بقيت صامتة، ثم أخبرني بأن علينا أن نختلق سببًا نخبر به والديّ، لذلك قررنا أن نخبرهما بأنني كنت أشعر بالإجهاد؛ لعدم عثوري على عمل. وعندما رجع والداي للعيادة كان على الدكتور خليل أن يقنعهما بأنه بالكاد جعلني أتحدث؛ حتى لا يشعرا بأنه يخفي شيئًا عنهما. دخل والداي غرفة المعاينة، وانتظرا، ثم قام الدكتور خليل بتشغيل آلة، وتظاهر بأنه يعطي صعقة كهربائية.

«والآن يا فدوى، ألا تريدين التحدث معي؟ ما الذي كان يزعجك كثيرًا؟».

ابتسمت ابتسامة واهنة، وأجبته: «إنني قلقة من عدم العثور على وظيفة».

قدم الدكتور خليل حلًّا.

«في الحقيقة أنا أبحث عن سكرتيرة، وإن كنتما توافقان يمكن لفدوى أن تأتي للعمل عندي، فهي لن تشعر بالتعاسة، ويمكنني أن أعتني بها».

وافق والداي، ولكن يجب أبقى في المنزل، وأستريح مدة قصيرة، وبعدها سوف يسمحان لي بالعمل عند الدكتور خليل. وعندما رجعنا للمنزل أخذت أمي كل الدواء من الثلاجة، وأخفته في مكان ما احتياطًا، وطلبت من والديّ وأخي أن يتركوني وحدي في الغرفة، ثم سحبت دفتر يومياتي، وقرأت الصفحات الكثيرة التي كتبتها خلال علاقتي بأحمد منذ أول مرة التقيته،

وكان الكثير من صفحات ذلك الدفتر مليئة بكلمات الحب والفرح، لكن حان الوقت الآن لكتابة كلمات حزينة، كتبت كلمات أغنية حزينة لأم كلثوم تغني فيها عن ألم خيانة الحبيب، ولم تجد المغنية عزاءً إلا معرفتها بأن حبيبها سوف يندم للأبد على فقدانها.

أخرجني طرقٌ على الباب من دوامة اكتئابي. دخلت منيرة لغرفتي، وأخذت دفتر اليوميات من يدي لتقرأ ماذا كتبت.

«فدوى، سوف أبحث عن أحمد، وأخبره بأنك مريضة، فعليه أن يفعل شيئًا».

«لا، يا منيرة، لا تبحثي عنه، فلست أنا من قطع علاقتنا، إنه لا يرغب في أن يكون قريني بعد الآن. كل ما أحتاج إليه الآن هو الوقت لأنسى خسارتي، وأجد وظيفة حتى أستطيع أن أقف على قدمي من جديد، هل سمعت أغنية لأم كلثوم؟ أغنية حزينة عن معاناة الخيانة، إنها تصدح في رأسي طوال اليوم، قدمت المغنية قلبها لحبيبها، لكنه لم يقبل علاقة عفيفة، وعلى الرغم من خيانته لها لكنها لم تتخلَّ عن احترامها لنفسها».

«إنها أغنية جميلة يا فدوى».

عانقتني، وطمأنتني بأنني سأجد شخصًا آخر. لم أكن متأكدة من ذلك، لكن كان علي فعل شيء يشغلني عن التفكير في أحمد؛ لذا قررت أن أقبل الوظيفة التي عرضها علي الدكتور خليل.

دقت أجراس الرحيل، وفيت لك يوم نسيت الوفا، وحلفت لك لن أنساك، وبنيت لك في القلب بيتًا سميته الوفا، وأهديت لك قلبًا بالود وافٍ، ولكنك خنت عهد الوفا، للطيب طيب وللمواقف رجال.

عندما بدأت العمل عند الدكتور خليل كنت مسؤولة عن إعطاء المواعيد، وكانت علاقتي جيدة مع مرضاه، على الرغم من أنني لم أتكلم كثيرًا. لقد كنت خائفة من أن أقول له الكثير، وأن أعلمه بما كنت أفكر فعلًا، وماذا كان يجري في حياتي؛ لأنه كان رجلًا، ويمكن أن يخبر والدي.

كانت تصرفات الدكتور غريبة قليلًا، لكننا عملنا جيدًا مع بعض في أغلب الأحيان، وتعلمت الكثير في أثناء عملي في عيادته، وفي ذلك الوقت لم تمتلك العيادات الصغيرة في تلك المنطقة المال الكافي لتوظيف ممرضات مدربات رسميًّا؛ لذلك قاموا بتدريب السكرتيرات لتولي مهام الممرضات. علمني الدكتور خليل كيف أنفذ فحص كهربية القلب، وكيف أغرز

obeikandl.com

الحقـن، لكني كنـت خائفة من إدخـال قطعة معدن في ذراع المرضـى، لذلـك أعطاني دمية لأتدرب عليها، إلى أن أتعود على الأمر.

كنت أتقاضـى سـتين دينارًا في الشهر، أي ما يعادل خمسين دولارًا أمريكيًّا. لم يكن راتبًا كبيرًا، لكني شـعرت بالغنى؛ لأني أكسـب مالي الخاص، وأقدر على شـراء ملابس جميلة، ولأني كنت لا أزال أعيش في منزل والدي لم تكن لدي مصـاريف كثيرة، ومن حين لآخر عندما يعجب أحد المرضى بمهاراتي في تنفيذ فحص كهربية القلب وغرز الحقن كان يعطيني بقشيشًا. ففي إحدى المرات جاء رجل من عُمان، وأعطاني عشرة دنانير، أي ما يعادل ثمانية دولارات أمريكية!

كان بعض المرضى الذين قابلتهم يخيفونني قليلًا. ففي إحدى المرات جلست امرأة في قاعـة الانتظار مع زوجها، وظلت ممسـكة بذراعه، وتقول مرعوبـة: إن هناك رجلًا ينظر إليها مـن خـلال النافذة، التفت حولي قليلًا لألقي نظرة على ذلك الرجل، كاتمة نفَسـي ومحضّـرة نفسي ألا أصرخ عندما أراه، لكني لم أرَ أحدًا، عندما نظرت من النافذة. أخبرني زوجها بأنها تعاني هلوسـات، فأحضرها ليراها الدكتور خليل؛ لأنها كانت تسمع أصواتًا تخبرها بأن تحرق المنزل، وكانت تطيع هذه الأصـوات. أما أنا فلم أتعرض لأي مرض عقلي في طور بلوغي، ولم أسـمع بهذه الأمور من قبل، لكني عاملتها بطيبة، وأحضـرت لها كأسًـا من الماء، وعندما أتيا للعيادة في المرة الثانية أحضرا لي زهورًا لأضعها على مكتبي.

خـلال مدة عملي عنـد الدكتور خليل تعرفت إلـى فتاتين كانتا تعملان فـي عيادتين في المبنى نفسه: إحداهما تدعى (رائدة) كانت تعمل عند طبيب نسائي، والأخرى تدعى (حليمة) كانت تعمل عند طبيب أسنان. أما منيرة فقد عثرت على وظيفة في مركز الأزياء الحديثة. وكنا نحن الأربعة نتقابل كل يوم لتناول طعام الغداء. بدأت أستمتع بحياتي بوصفي فتاة عزبة، لكن بعد بضـعة أشـهر من بدء عملي أخبرني الدكتور خليل بأنه سـينقل عيادته إلى مدينة أخرى؛ لذلك كان علي العثور على وظيفة أخرى.

بـدا والداي غير مهتمين بالمرة، عندما أخبرتهما بأنني سـأترك عملي عما قريب، فقد اتضـح أنهما قررا أنه قد حان الوقت لكي أتزوج، وأسـتقر. كان الزواج المرتب مسـبقًا لا يزال شـائعًا في مجتمعي، فعند المسلمين والعرب كانت تلك العملية تقتضي أن يلتقي الآباء، ويسألا بعضهما عن شخصية الزوج أو الزوجة المحتملة وتعليمهما، وكم من المال يملكان، وبعد حسم

هـذه الأمـور يمكنهمـا أن يتقابلا، لكن بحضـور الوالدين طبعًـا، وأكدت لي أمـي أنه ليس من الضروري أن أحب زوجي قبل أن أتزوجه، فالحب سوف يكبر بيننا مع الوقت.

كانت إحدى خالاتي تلحّ على أمي منذ أن كنت في الثالثة عشـرة من عمري بأن تزوجني لابنها، ابن خالتي (مروان). لكن لم تخضع أمي لطلبات خالتي، وكانت تخبرها بأنها لن تسمح لـي بالـزواج قبل أن أنهي دراسـتي الثانوية على الأقـل، وإذا بقيت عزبة بعد إنهائي الدراسـة فسوف تفكر في الموضوع.

والآن أنهيت دراسـتي الثانوية، وأنهيت دراستي في السكرتارية، وعملت بضعة شهور، فقد حـان الوقـت لعقد اتفاق زواجـي. وكان والداي ووالدا مروان سـعداء بفكرة تزويجنـا؛ لأننا كنا أقارب من جهة الأم والأب. فقد كانت أمي وأمه أختين، وكان أبوه ابن عمي (الزوجة الثانية لوالد أبي كانت أم أبي مروان) لكني كنت الوحيدة في العائلة غير سـعيدة بهذه الخِطبة. فعلى االرغم من أن أحمد جرح مشـاعري عميقًا، لكني كنت أفكر فيه طوال الوقت، لقد أردت بشـدة أن أقطع علاقتي مع مروان، لكني عرفت أن هذا سيتسـبب في شـرخ في عائلتينا، فمن المحتمل ألا ترى أمي أخواتها مرة أخرى بسببي؛ لذلك قررت في النهاية أن أرضى بخِطبته في سبيل عائلتي.

وبينما كنت أنتظر لحين زواجي قبلت وظيفة سـكرتيرة في شـركة عقارات، كانت تقع على بعد خمسة صفوف من البيوت عن مكان عملي السابق، حيث كنت أذهب لتناول الغداء كل يوم مع رائـدة وحليمة ومنيرة. أردت أن أعمل لحين موعد زواجي، ثم أبقى في المنزل لأنجب الأطفال، وفي غضـون ذلك شـجعتني أمي على ادخار نقودي لأشـتري بعض الحلي الذهبية. فقد اعتادت النسـاء على ارتداء الذهب، لكن أمي أرادتني أن أمتلك شـيئًا يمكن أن أبيعه في حال أصـبحت عاطلة عن العمل، أو احتجت إلى المال لحالة طارئة، ولم يكن علي أن أخبر مروان بذلك.

وفـي النهاية قطعت عائلتـي علاقتي بمروان، فبعد أن مرت بضـعة أشـهر على خِطبتنا أعطاني مروان مهري الذي اتفقت عليه عائلتانا، واشـترى لي بعض الحلي الذهبية والملابس والبطانيات لمنزلنا المستقبلي. لكن كان في ذمته جزء من المهر لم يدفعه، لذلك ذهب أخي الأكبـر ليطالبـه بالمال، فرفض أن يعطيني إياه. وتسـبب هذا في القطيعة بيـن أمي وأختها، لدرجـة أن خالتي في أحد الأيام اتصـلت بي في مكان عملي، وأخبرتني بأنه إذا بقيت أسـتمع إلى كلام أمي فسوف أخسر مروان. لكني طلبت منها، متظاهرة بالكآبة وخيبة الأمل أن تتفهم

أن علي طاعة كلام والديّ، وبهذه البساطة انتهت خِطبتي بمروان.

بعد أن انتهت خطبتي عادت الأمور لما كانت عليه في السـابق، على الأقل مدة قصـيرة. وعلى الرغم من أن عملي الجديد يبعد خمسـة صـفوف من البيوت عن المكان الذي تعمل فيه صـديقاتي، إلا أننا كنا نجتمـع كل يوم لتناول الغداء. وكنا نتبادل، يـوم أذهب إليهم في مكان عملهم ويوم يأتون إلي. أصـبح المشـي إلى هناك روتينيًّا، لدرجة أنني بعد مدة بالكاد لاحظت البيئة حولي. فقد كان الطريق إلى صـديقاتي مليئًا بنوافذ عرض كبيرة فيها فساتين وأوشحة وسـاعات، لكني لم أَرَ إلا الرصـيف يتحرك تحت قدمي، ويحملني إلى صديقاتي، كنت سعيدة بحياتي كما كانت، لكن لم يكن مقدرًا لها أن تستمر على هذا المنوال. فقد كان والداي متلهفين على تزويجي، إذ لا أزال في ذروة جمالي الجسدي.

obeikandl.com